نبأ من اليابان

لا شبهة في ان ظهور اليابان وتفوقها نبَّها كلَّ ابناء المشرق من سباتهم الذي مرَّت عليهِ الدهور فقال اصحاب الاماني ان كل ما تيسَّر لتلك الامة الشرقية يجب ان يتيسَّر لغيرها من الامم وقال الذين يبنون احكامهم على الاستقراء والقياس ان الذين يأخذون منا مأخذ اليابانيين ويجرون في خطتهم يبلغون شأوهم او ما يدانيهِ حسب استعدادهم الفطري

وقد مرَّت السنون ونحن نشيم كل بارق يبدو من جهة اليابان اغراء لقراء المقتطف باتِّباع خطة تلك الامة النشيطة في ما آل الى فلاحها . وقد عثرنا الآن على مقالة لاحد مصوريهم وصف فيها ما لقيهُ من المشاق حينما قصد اميركا للتعلُّم فيها فرأينا ان نقتطف منها ما يلي لعلَّهُ يكون عبرة لشبابنا الذين يطلبون المعالي ويصدم الفقر . قال الكاتب

وصلت السفينة بنا الى شاطىء اميركا الغربي (الباب الذهبي) في الخامس عشر من يوليو سنة ١٨٩٣ وانا في جملة ركابها المهاجرين الاصيبين اي الصينيين واليابانيين الذين يقصدون اميركا للتعيش وكان قانون دخول المهاجرين الى اميركا الذي سُنَّ حينئذٍ يقضي بان يكون مع كلٍّ منهم مئة ريال على الاقل ولم يكن معي حينما ركبت البحر سوى عشرين ريالاً وقد صرفت ثلاثة عشر منها في هونولو فقلقت لذلك قلقاً شديداً وخفت ان أُمنع من دخول البلاد واطلعت بعض رفاقي على هذا الامر فقالوا لي لا تقلق لانك لستَ من العمال والقانون انما وضع لاجلهم . واشار عليَّ بعضهم ان ادَّعي ان معي مئات من الريالات ولكنني بعثت بها اماي الى بنك في سان فرنسسكو . اما انا فكنت اكره الكذب واذا حاولتهُ فوجهي يمَّ عليَّ . ولما لم ارَ لي منفذاً ضاقت الدنيا في عينيَّ وختمتني العبرات فشفق عليَّ واحد من كبراء اليابانيين واسمهُ المستر صودا وقال انهُ يذهب معي الى المأمور المكلف برؤية ما مع المهاجرين من النقود ويقول لهُ انني من اصدقائهِ وانهُ اذا كان لا بدَّ من ان يكون معي مئة ريال فهو يريهِ هذا المبلغ كأنهُ لي . ففرَّج كلامهُ كربتي وشعرت كأنني لقيت بوذه في الجحيم

وليلة الرابع عشر من يوليو قام الركاب كلهم مشوقين الوصول الى البر وكنت اشدهم قلقاً فلم يغمض لي جفن تلك الليلة وبعد منتصف الليل رأيت بعض التلال والانوار الكهربائية فعلمت اننا دنونا من سان فرنسسكو المدينة التي كنت اقصدها فخفق فؤادي وشعرت كأنني دنوت من نيل مرادي ولكن لم يكن الاَّ قليل حتى اكتنفنا ضباب كثيف

فلم نعد نرى شيئاً ووقفت آلات سفينتنا عن الحركة وبقيت بضع ساعات قبلما انقشع الضباب. ونحو الساعة العاشرة عادت السفينة تسير الهوينا ورأينا العمال ينقلون الفحم من السفن الى القوارب وقد سوّد غبار الفحم وجوههم فالتفت المستر صودا اليّ وقال لي لا بدّ لك من ان تعمل مثلهم فان هذا هو العمل الذي ينتظرك. فقلت على الرحب والسعة فاني مستعد لكل عمل. ولم اكن اعلم حينئذٍ ان تلك الشجاعة قصيرة الاقامة وانني سألاقي من المشاق اضعاف ما يلاقيه اولئك العمال فانهم كانوا يعاملون كأنهم بشرٌ رغماً عن اسوداد وجوههم وايديهم اما اليابانيون فلا يعاملون معاملة البشر واني التمس من القارىء صبراً حتى يقف على خاتمة قصتي ويرى صدق قولي

وصلت السفينة الى الرصيف وصُفّ مئات من الصينيين على ظهرها كأنهم قطعان الغنم وفيهم رجل اعرفهُ من الوجهاء اسمهُ هان تسوجي لون وكان يانفر ثيابهِ الحريرية وجاء مأمورو الفحص وجعلوا يسمون ظهورهم بالطباشير ووسموا ظهرهُ ايضاً وهم يشتمونهم ويرفسونهم بارجلهم كانهم من خشاش الارض. فدهشت من ذلك لانني لم ارَ في حياتي احداً يعامل الناس هذه المعاملة بل الراعي اراأف بغرافهِ من اولئك المأمورين بالمهاجرين الصينيين وتقدمت من هان تسوجي لون وقلت لهُ اني لا اطيق ان اراك تعامَل هذه المعاملة فهزّ رأسهُ وقال بانكليزية مكسرة ان هذا شأن كل الاسيركيين. ثم اخذ ورقة من جيبهِ وكتب عليها عنوانهُ والشارع الذي يسكن فيهِ وطلب مني ان ازوره. ودنا منا حينئذٍ احد المأمورين وقال لي ما شأنك يا ياباني مع هذا الصيني قال ذلك ودفعني بيدهِ فاشتدّ بي الخنق حتى كاد يخنقني وقلت في نفسي لقد اخطأت في حسباني اميركا من اكثر البلدان تمدُّناً فاني ارى سكانها من اكثر الناس توحُّشاً

وجاء المستر صودا حينئذٍ وقال لي يجب ان تذهب الى تلك الغرفة لتفتّش فيها قال ذلك ومشى امامي فتبعتهُ ووجدت في الغرفة مأموراً اميركياً وترجماناً واثنين من اليابانيين احدهما المستر شندا فصل اليابان وكان معي كتاب توصية لهُ. فقال لي المأمور ما هو غرضك من المجيء الى اميركا. فاجبتهُ بالانكليزية الدرس.

فقال اتعرف احداً في سان فرنسسكو فقلت كلاً ولكن معي كتاب توصية الى قنصل اليابان واخرجت الكتاب من جيبي لاعطيهُ للمستر شندا لكن المستر شندا اومأ اليّ ان لا افعل ففهمت اشارتهُ وارجعت الكتاب الى جيبي فقال المأمور «ادخل» اي لجواز لي دخول اميركا فسررت بذلك. وسار المستر صودا امامي ونزل الى البر ودخل مركبة واشار

اليَّ لاتبعهُ فتبعتهُ وسرنا الى محل الرسالة اليابانية ورأيت هناك كثيرين من الشبان اليابانيين يتكلمون عن الاعمال التي كانوا يتعاطونها وكلها من نوع الخدمة في البيوت مثل الطبخ والغسل وما اشبه فعرتني الدهشة وجلست على كرسي في زاوية كاسف البال . فدنا مني واحد من اولئك الشبان وقال لي انظنك جديداً فيجب عليك ان تنهض الآن وتجد عملاً تعمل بهِ والاَّ مت جوعاً متى جاء فصل المطر والبرد . فقلت لهُ ألا يمكننا ان نجد عملاً اشرف من هذه الاعمال

فضحك اولئك الشبان وقالوا لي لم تزل جديداً انظن ان البيض يأذنون لك في شغل غير الخدمة في البيت ومد سكك الحديد . اما انا فكنت مغترًّا بنفسي ظانًّا اني استطيع ان اعيش بشغلي العقلي

وبلغني حينئذٍ ان نادي اليابان العظمى يجتمع تلك الليلة فقصدت الذهاب اليهِ وسألت احد رجال البوليس عن مكانهِ فسأل رفيقهُ قائلاً اين يجتمع هؤلاء اليابانيون[1] الليلة فوقع كلامهُ في اذني كسيف خرق فؤادي . ووصلت النادي ورأيت القس هرس والمستر ثيندا يتكلمان عن تعليم اولاد اليابانيين في كليفورنيا وهذه اول مرة عرفت فيها حال اليابانيين في تلك البلاد وما يلاقونهُ من الشقاء في سبيل تعليم اولادهم

وذهبت في اليوم التالي مع احد اليابانيين الى روض الباب الذهبي فكنا كلما مررنا بجمع مزدحم نرى الناس يهزأون بنا وبعضهم يبصق علينا ورشقنا بعضهم بالحجارة . وهذه اول مرة وآخر مرة زرت فيها ذلك الروض

وتوالت الايام وهي تثبت لي ان لا عمل لمن كان مثلي غير الخدمة البيتية لان اهالي كليفورنيا لا يحسبون اننا بشر نستطيع ان نعمل عملاً يحتاج الى عقل وكان لا بدَّ من الرضا بهذا الحكم الجائر لان نقودي نفدت كلها وعضني الجوع فخفضت جناحي وازلت من نفسي كل عواطف الشمم والشرف لان ذلك لا يليق بمن يجعل نفسهُ خادماً بل عبداً لغيره

وارشدني بعضهم الى بيت اكون فيهِ خادماً جزءًا من النهار واقضي بقية يومي في المدرسة للتعلم ويسمون الخادم الذي كذلك ولد المدرسة فاستخدمتني صاحبة البيت بريال ونصف في الاسبوع وطلبت مني ان انظف ارض المطبخ واغسل الشبابيك فقضيت ساعة في غسل المطبخ وساعة في غسل الشبابيك فحطت عليَّ وقالت اني بطيء في عملي ولكنها

(١) الكلمة الانكليزية (Japs) وهي كلمة محتقرة للصغير والحقير

استدركت على ذلك قائلة انني جديد ومتى تعلمت اصير اسرع في عملي وعاد زوجها واولادها في المساء وكانوا ثمانية فجعلت تعلمني كيف اطبخ وقالت لي ما اسمك تشارلي فقلت نعم وعند العشاء نادتني بهذا الاسم ولبيتُ انني سميت نفسي به فلم اجبها فجاءت الى المطبخ مغضبة وجعلت تتنهرني فلم اجبها بل غسلت الصحون والكؤوس وسائر ادوات الطعام وذهبت لاضعها في الخزانة مكانها فرأيت نفسي في مرآة هناك فنافست الدموع من عينيَّ ورأت ذلك احدى بناتها وسألتني عن شأني فقلت لها لا شيء وجاء اخوتها واخواتها فقالت لهم لا بدَّ من شأن لهذا الولد فمسحت دموعي وتبسمت وقلت لا شيء فضحكوا عليَّ وتركوني

بقيت في ذلك البيت اربعة ايام اخدم من السادسة صباحاً الى العاشرة ليلاً ومضيت في اليوم الخامس الى حيث يجتمع الشبان المسيحيون اليابانيون واخبرت واحداً من معارفي بما لاقيته في خدمتي من التعب الشاق فقال هذا ليس عمل ولد المدرسة بل هذه خدمة بيتية كاملة فان من يخدم كولد المدرسة يذهب كل يوم الى المدرسة لحضور الدروس فيها في ساعات الدرس فقل لمستخدميك ان يسمحوا لك بالذهاب الى المدرسة

فرجعت الى البيت وجعلت افكر في هذا الامر الليل كلهُ وكنت اكرهُ ان اخاصم مع ربة البيت كما يفعل الخدم فعزمت ان اترك خدمتها ولا ابدي لها سبباً وقلت لها في اليوم التالي ارجو ان تعفيني من الخدمة وكانت هي وابنتها الكبرى فسألتاني عن السبب فلم اذكر لهما سبباً بل اصررت على ترك الخدمة فأبت المرأة ان تسمح لي بالذهاب وخاطبتها ابنتها في ذلك قائلة لها لا يخفى لنا ان تبقيهُ عندنا رغماً عنهُ . (وهذه هي الروح الاميركية التي اعجب بها) . فاغتاظت امها منها وقالت لها هذا شغلي لا شغلك واشتدَّ الخصام بينهما نصف ساعة واصرَّت المرأة على ان لا تدعني اذهب قبلما يعود زوجها في المساء والاَّ فلا تدفع اجرتي فقلت لها اني لا اريد اجرة ورودعتهما وخرجت ولما وصلت الى الباب زمتني ابنتها وقالت لي انا ادفع اجرتك من جيبي ووضعت ريالاً في يدي

وخدمت بعد ذلك في سبعة بيوت كولد مدرسة اي كنت اخدم نصف النهار كخادم او طباخ واذهب الى المدرسة في النصف الآخر وكنت اضطرُّ احياناً ان اترك البيت هرباً من سوء المعاملة او لان اصحابهُ اكلوا اجرتي . وكثيراً ما كنت امشي الليل جائلاً في الشوارع لانهُ لم يكن معي غرشان ادفعهما اجرة فرشة انام فيها . واحييت مرةً ليلة على هذه الصورة وذهبت في الصباح الى بيت فيهِ طباخ ياباني لعلي اجد عندهُ شيئاً اسدُّ بهِ رمقي فاخذني الى مخدعهِ في الدور الاسفل تحت البيت واخذ يحمص بعض الخبز ليطعمني اياهُ واذا بصاحبة

البيت دخلت المطبخ فجأة وسألته عن سبب تحميصه الخبز فقال انهُ يحمصهُ ليأكلهُ فارتبت في ذلك لانها كانت تحسب انهُ افطر وجلست امامهُ فاضطرَّ ان يأكل كل الخبز الذي حمصهُ فوق شبعهِ وهو خائف لئلاَّ تنزل الى مخدعهِ وتراني فيهِ وبقي في المطبخ الى ان خرجت من البيت فنزل اليَّ بكسرة خبز وبيضة مسلوقة وامرني بالذهاب

والتقيت بعد حين بفصل اليابان وبعض شيوخ اليابانيين واخبرتهم اني اود ان اتقن الانكليزية واصير من الكتَّاب فيها فنصحوني كلهم ان اتعلم التصوير فان النجاح فيهِ ايسر من النبوغ في لغة اجنبية فرأيت انهم مصيبون وذهبت الى مدرسة التصوير المسماة مدرسة هيكسن ولكن من اين اجد اجرة التعلُّم وهي ستة ريالات في الشهر لمن يتعلَّم رسم الاشكال المنصوبة وسبعة ريالات لمن يتعلم رسم الاشياء الطبيعية واذا خدمت كولد مدرسة اجد الوقت الكافي للتعلم ولكنني لا اجد النفقة الكافية للاجرة ولذلك عزمت ان اخدم بيتاً اقوم بكل اعمالهِ من طبخ وخدمة عامة حتى اكتسب ما يكفي اجرة للمدرسة فدخلت بيتاً الاجرة فيهِ ثلاثة ريالات في الاسبوع ولما أريت الخدم المعد لنومي وجدت على حائطهِ كتابة يابانية بقال فيها احذر فان ربة البيت قاسية سليطة . فقلت لما قرأت هذه الكتابة لكن مهما كانت قاسي صرت عبداً والعبد يجب ان يصبر على الضيم ولكني وجدت انها فوق ما وصفها سلقي قساوةً وشراسة فانها كانت لا تنفك عن التهاري والتذمر مني من الصباح الى المساء . وأصبت بالنزلة الوافدة ولكنني اضطررت ان ابقى ملازماً عملي مع اني كنت اشعر كلما خطوت خطوةً كأنَّ رأسي يكاد يشق واذا انطرحت في فراشي ليلاً اشعر كأنَّ سفُّوداً من الحديد المحمَّى دخل في سلسلة ظهري . ومرَّت عليَّ اربعة ايام وانا على هذه الصورة . واخيراً فرغ صبري وتركت ذلك البيت بعد ان اقمت فيهِ اربعة اسابيع وكل الذين رأوني حينئذٍ قالوا اني صرت جاداً وعظماً ولقبوني بلقب «كجبوشي» اي الخيال لكني جمعت في هذه الاربعة الاسابيع اكثر من عشر ريالات

وقيل لي حينئذٍ ان العمل مياومة اصلح لي وذلك ان امضي في الصباح الى المكان الذي يجتمع فيهِ العمَّال اليابانيون فأُوجر لعمل يقتضي يوماً واحداً او بعض يوم مثل تنظيف الشبابيك وما اشبه فعملت واتفق ان طبيباً من اطباء الاسنان استخدمني لعمل اللثات الصناعية من الكاوتشوك فكسبت من هذا العمل ما يساعدني على التعلُّم في مدرسة التصوير شهرين ورُزقت حينئذٍ اعظم رزءٍ وذلك انهُ جا في نعي والدي وكان لهُ في نفسي اكبر معزَّة

ولاسيما بعد وفاة والدتي وكنت آمل ان افلح في حياته فاسرّهُ . وكتب اليَّ اخي واختي انهما طلبا منهُ ان يخبرهما عما يريد ان يقولهُ لي قبل وفاته وكان لا يستطيع النطق لانهُ اصيب بفالج فلخذ قلماً وكتب بهِ «ان يسمع عن نجاحي قبل وفاته» فما قرأت كتابهما انصدع فؤادي وخنقتني العبرات . ومرَّت عليَّ بضعة ايام وانا كأنني في حلم ثم اخذت الوم الخالق لانهُ اخذ ابي قبلما تقرَّ عينهُ بي . وشعرت حينئذٍ من السير في الخطة التي كنت فيها لانها بطيئة عالَّة فتعلقت على المقامرة وصرت اقضي اوقاتي في قهوات الصينيين لكنني لم اصبر على ذلك سوى اربعة اسابيع وسمعت حينئذٍ واحداً من المقامرين يقول انهُ اذا جاء ومعهُ مئة ريال فخسرها ولم يبقَ معهُ منها سوى ربع ريال فقد يسترد العشرة الريالات بربع الريال ولكن اذا اتى ومعهُ ربع ريال فقط فلا يستطيع ان يربح بهِ عشرة ريالات ولما قال ذلك قلت في نفسي اني ولدت سموريًّا[1] وساعود سموريًّا ولو كنت قد صرت عبداً ذليلا ولاسبيل لي للعود الى اصلي الاَّ الدرس والاجتهاد وكانت المزاولة قد علمتني الطبخ والغسل والكي فاستخدمتني سيدة اسمها مس هلدن لكي اطبخ لها طعام الصباح والمساء وعاملتني هي وكل عائلتها احسن معاملة وهم انكليز ومن اشدّ الانكليز تعصباً للانكليز وسهّلوا لي سبيل التعلُّم فاعطوني كل لوازم التصوير وكنت اذا اردت ان اذهب صباحاً لرسم الرسوم من الطبيعة يتناولون الطعام باكراً لكي لا اعاق عن الذهاب واذا زارهم الزوار اجلسوني معهم في غرفة الاستقبال لكي اتحادث مع زوارهم . وكثيراً ما كنت اضع ادوات التصوير في المطبخ واغفل عن الطعام فيشوط او يحترق وتدخل مس هلدن الى المطبخ وترى الطعام محروقاً فتضحك ولا تعنفني بكلمة . بقيت في ذلك البيت ثلاث سنوات وكنت ادفع الى المدرسة ستة ريالات كل شهر من اجرتي ولم يكن يبقى معي ما استطيع بهِ ركب الترامواي فكنت اسير ماشياً دائماً مهما كانت المسافات طويلة حتى انهكني التعب وعزمت مراراً كثيرة على ترك الدرس والاكتفاء بالخدمة . وذات يوم جاءني استاذ التصوير وقال لي اني اراك قد برعت كثيراً فيجب ان تضم الى فرقة التصوير الطبيعي من الند (اي التي تصور عن الطبيعة) فحدثني رفاقي كلهم على هذا الامتياز اما انا فاسقط في يدي لاني صرت مضطرًّا ان ادفع سبعة ريالات كل شهر بدلاً من ستة فعزمت ان اعمل عملاً آخر في الصباح زيادة على ما اعمله في بيت مخدومي لاكتسب الريال السابع فاسرعت الى مكاتب التقديم

(١) السموري من اليابانيين الذين من نسل الاعيان والحكام

الياباني بعد ان تناول مخدومي طعام الصباح وساومت على غسل شبابيك بيت بنصف ريال واسرعت الى ذلك البيت ومعي بعض الخرق وقرعت الجرس فاتى فتى فتح لي الباب واذا هو من اولاد الفرقة التي اتعلم فيها فذبت خجلاً واخفيت الخرق في جيبي اما هو فرحب بي وقال لي كيف اهتديت الى البيت هلمَّ وانظر معي ثم تذهب الى المدرسة سوية فدخلت واكلت معهُ فوق شبعي ومضينا الى المدرسة وذهبت امهُ الى مكان التخديم تحتجب وتخاصم لان الولد الذي أرسل ليغسل شبابيك بيتها لم يذهب اليهِ

وبليت ثيابي وتمزَّق حذائي فاضطررت ان امتنع عن المدرسة مدة الى ان وفَّرت ما اشتريت بهِ ثياباً . وكثيراً ما كان البهال يمصقون عليَّ او يرشقوني بالحجارة فصرت اتجنَّب المشي في بعض الاسواق الاَّ لغرض ضروري وكان استاذ التصوير يعطيني خبزاً لتعلمهُ وقت الرسم بالفحم فكنت اجعل غذائي منهُ . ومرَّت عليَّ اربع سنوات سكنت فيها سان فرنسسكو وانا على هذه الصورة حتى سئمت المعيشة فيها وعزمت على الرحيل الى شرقي اوربا والتقيت سنة ١٨٩٧ بالقبطان سكوراي وكان قد جاء سان فرنسسكو لبناء مدرعة فيها فاعطاني مكاتيب توصية الى معارفهِ في باريس ولندن واشترى صورة من صوري بثلاثين ريالاً وهي لا تساوي غرشاً واعطاني ياباني آخر عشرين ريالاً فسافرت بها الى نيويورك ولقيت هناك الامرّين لكن واحداً من اصدقائي اليابانيين اعطاني خمسين ريالاً فسافرت بها الى اوربا . انتهى

هذا ويظهر من حاشية علَّقها صاحب المجلة على هذه المقالة ان كاتب المقالة صار الآن من المؤلفين باللغة الانكليزية كما صار من المصورين . واكثر الذين اشتهروا جروا على هذه الخطة من التعب والنصب وتجشم المشاق وتحمُّل شظف العيش ولعلَّ هذا الياباني فاقهم كلهم في شدَّة ما عاناهُ . والظاهر من سير كثيرين من اليابانيين الذين اشتهروا في الحرب الماضية انهم كانوا وهم امراء في بلادهم يدخلون السفن الحربية خداماً ويتجشمون كل انواع المشاق لكي يتعلموا ادارة السفن الحربية فلا عجب اذا نجحت امَّة يجري رجالها في هذه الخطَّة ولا يبالون بالمتاعب في سبيل النجاح . فليتذكَّر ذلك شبابنا ولاسيما شبان الرسالات العلمية التي تذهب الى اوربا ونحن لغفلتنا نودعها بالاحتفال ونستقبلها بالاحتفال ونبسط لها الحرير لتمشي عليهِ ناسين ان النعمة وبسطة العيش لا تربيان الرجال ولا تقويان العزائم